

الطَّرِمَّاحُ بن حَكِيمِ الطَّائِي

(٢)

هجاؤه

الهجاء والنخر هما الفنانان اللذان زخر بهرهما وتفنن الشعراء بهما في العصر الأموي ، وذلك لتيقظ روح العصبية بين القبائل واختلاف المذاهب السياسية . وهجاء الطرمّاح مر لا ذع فيه تهكم وسخرية وألمعية ، من غير فحش أو اقذاع الاعلى الندرة . وهو في الهجاء اكثر لباقةً وأوسع تصرفاً وألس لغة واحكم قافية وايرع ثنناً منه في جميع أبواب شعره . روى صاحب الأغاني بسنده عن الفضل قال : « اذا ركب الطرمّاح الهجاء فكأنما يوحى اليه ثم أنشد له قوله :

لو حان ورد تميم ثم قيل لها حوض النبي عليه الأزد لم ترد
او انزل الله وحياً أن يعذبها إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد
لا عن نصر امري اضحى له فرس على تميم يريد النصر من أحد
لو كان يخفي على الرحمن خانية من خلقه خفيت عنه بنو اسد»

والغريب انه في غزله اكثر منه جداً في هجائه . وشعر الطرمّاح المشتمل على كثير من غريب اللغة وعويصها يكاد يخلو منها اذا كان هجاء كأنه أراد بذلك تقريبه من فهم الناس كلهم ليسهل حفظه وتعم روايته . ولقد مزق بهجائه بني تميم = على كثرة شعرائها = تمزيقاً . وهجاؤه ونخره أجود ما قال من الشعر وهو فيها اكثر براعة واحساناً وحسن تصرف منه في جميع ابواب شعره .

* * *

وأثر الدين واضح جلي في طائفة من شعره منها قوله : (١)

كل حي متكلم عدة العم رومود إذا اتقضى عدده
عجياً ما عجبت للجامع الما ل يباهي به ويرتفده

(١) ديوان الطرمّاح ص ١١٢

ويضيع الذي يصيره الد ه اليه فليس يمتقده
يوم لا ينفع الخوّل ذا اثر وة خلائنه ولا ولده
يوم يوثق به وخصماه وسط ال جن والانس رجله وبده
خاشع الصوت ليس ينفعه تم امانيه ولا لده

لغته

الطرماح من اكثر الشعراء الاسلاميين تتبعاً لغريب اللغة وعويصها، ولغته في قسم كبير من شعره اشبه بلغة الرجّاز الذين كانوا يباهون بالغرابة مثل العجاج وابنه رؤبة وابي النجم . قال محمد بن حبيب : « سألت ابن الاعرابي عن ثمانى عشرة مسألة كلها من غريب شعر الطرماح فلم يعرف منها واحدة يقول في نعيم - لا أدري لا أدري » .

ولعل السبب في ذلك ان الطرماح لم يكن بدوياً بل أخذ اللغة على سبيل الطلب والتلقي واشتغل بالتعليم زد على ذلك ان رواة الادب واللغة وقتئذ كانت يعجبهم هذا النوع من الغريب يستشهدون به ويدونونه . فكأنه اراد ان يدل بسعة معرفته بلغة العرب وغريبها ، فجمع في كل قصيدة من غريب اللغة مالا تكاد تراه في ديوان ليتدارسه الطلاب ويستشهد به الرواة .

واقدر كان يسأل عن معاني شعره في مجالس اهل الادب ويحتج علماء اللغة به ويمتنحون معرفتهم بمفرداته . وايياته المثبوتة في المعاجم اللغوية كأساس البلاغة للزمخشري والقاموس للفيروزابادي ولسان العرب لابن منظور كثيرة . وذلك بالرغم من حملة الاصمعي عليه فقد كان لا يحتج به ولا بصاحبه الكميت ويقول : « الكميت تعلم النحو وليس بحجة وكذلك الطرماح وكنا يقولان ما قد سمعاه ولا يفهانه » .

ولقد اغرق الطرماح في تتبع الغريب واستعماله وسأل عنه وتكلفه قال العجاج : « كان الكميت والطرماح يألاني عن الغريب فأخبرهما به ثم أراه في شعرهما وقد وضعا في غير موضعه فقليل له ولم ذلك قال لأنها قرويان يصفان مالم

يرى فيضمانه في غير موضعه وانا بدوي اصف مارأيت فأضعه في مواضعه (١)». بل زعم بعضهم ان الطرماع كان يجمع الفاظاً نبطية ويقيدها تم يعربها ويستعملها في شعره حباً بالاغراب . قال الأصمعي : « ذكر الطرماع عند ابي عمرو بن العلاء فقال رأيت بسواد الكوفة يكتب الفاظ النبط فقلت ما تصنع بهذه قال أعربها وادخلها في شعري » (٢) .

ولكن الذي ينبغي التنبيه اليه ان الطرماع لا يتكلف الغريب في كل شعره وانما في قسم منه تتعلق اغراضه بالشاعر نفسه ولا نعتدها الى سواه قري القصيدة تشمل على غزل ووصف ونثر وآراء خاصة لا علاقة لها بمدح يصعب عليه فهمها او مهجو يأمن سيورتها لغراب لغتها وهذا القسم من شعر الطرماع أشبه بالمقامات التي عني أصحابها يجمع الفصح والشوارد وجعلوها لطلاب الادب والخاصة دون العامة . وهكذا نرى رواة الادب واللغة عنوا بهذا النوع من شعر الطرماع اكثر من غيره ولا يبعد ان يكون هو نفسه كان يرويه تلامذته لأنه اشتغل بالتعليم .

وهناك قسم آخر من شعر الطرماع لا تفرق لغته عن لغة الشعراء المعاصرين له كالفرزدق وجرير واكثره في الهجاء والفخر وبعضه في المدح والثناء تغلب عليه الجزالة من غير اغراب ولا يحتاج القاري في تفهمه لاكثر مما يحتاجه في تفهم غيره من الشعر في العصر الأموي . واغراض هذا القسم من شعر الطرماع تستدعي عدم التعمق والاغراب لأن الهجاء اذا لم تكن لغته سائغة لا يسير بين الناس ولا تروبه العامة ، والمدح بالعويص والحوشي أشبه بالتهكم والسخرية وكذلك الرثاء والفخر . وقبل ان اتعي من الكلام على لغة الطرماع أريد ان أدل على بعض كلمات من لغة طيبي وردت في شعره ولا غرابية في ذلك فهو طائي . من ذلك قوله :

كجة الساج فجا بابها صبحُ جلا خضرة أهدارها (٣)
فجا بابها اذا فتحه بلغة طيبي . وقوله :

(١) الاغانى ج ٢ ص ١٧ (٢) الموشح للرزباني ص ٢٠٨ (٣) ديوان الطرماع ص ١٦٢

قد اخضلّ منها كل بالٍ وعَيْنٍ
 العَيْنَ والعَيْنَ الجديد في لغة طيٍّ • وقوله :
 وجفّ الروايا بالمللا المتباطن^(١)
 وغدا اذ بدت له الشمس يجتا
 ب كئيبا أُخْلِ له عَقْدَةٌ^(٢)
 أُخْلِ له اي أُخْلِ له وهي لغة طيٍّ •

ديوان الطرماح

في سنة ١٩٣٧ ميلادية تم طبع ديوان ظفيل الغنوي وديوان الطرماح بن حكيم الطائي^(٣) في مجلد واحد بعناية المستشرق الفاضل الاستاذ ف. كرنكو عن النسخة المكتوبة في الأندلس سنة ٤٣٠ هجرية والمحفوطة في المتحف البريطاني في القسم الشرقي رقم ٦٧٧١ •

ويقول الاستاذ كرنكو ان نسخة الديوان المخطوطة المشتملة على شعر الطرماح وشرحه غير تامة وغير مذكور فيها اسم جامع الديوان ولكنه يظن انه الطوسي احد من جمع شعر الطرماح • ولذلك فان الاستاذ كرنكو اردف الديوان بنديل جمع فيه ما عثر عليه من شعر الطرماح في كتب الادب واللغة والتاريخ • ثم بعد ان تم طبع الأصل والنديل عثر ايضا على أشياء آخر من شعره في نسخة مخطوطة من كتاب معاني الشعر لابن قنيبة وغيره فألحقها بالنديل • وقد ترجم الديوانين الى اللغة الانكليزية وجعل لها مقدمة وفهارس للقوائد والمقطوعات والاعلام والمراجع ومعجم لمفردات الديوانين مع ترجمة المفردات الى اللغة الانكليزية بعناية وجهد وتدقيق تنم على علم وفضل وبراعة •

وهاك وصفاً موجزاً لقوائد ديوان الطرماح واغراضها :

القصيدة الأولى ومطلعها :

ألا أيها الليل الذي طال أصبح - ييمّ وما الاصبح فيك بأروح -

نظمها في يم من بلاد كرمان بفارس وفيها حنين الى وطنه وتشوق الى زوجه سلى وولده

(١) الديوان ص ١٦٨ (٢) الديوان ص ١٢٢ (٣) انظر مجلة المجمع م ١٦ ص ٢٦

صمصامة ووصف للفلاة والذئب والناقة والقطا وفيها نخر . ومن ابداع ما فيها عاطفته نحو
 زوجته وولده وخوفه من ان يموت بعيداً عنها فتزوج سلى غيره فيسيء معاملته ابنه
 صمصامة . وهذه القصيدة ملحّتان عشر عليها الاستاذ كرتكو فأثبتها في آخر الديوان .
 وعدد ابيات هذه القصيدة عدا الملحّقين أربعة وخمسون بيتاً .
 القصيدة الثانية ومطلعها :

قلّ في شط نهر روان اغتاضي ودعالي حوى العيون المراض
 وهي احدى القصائد المعروفة بالملحّات المذكورة في كتاب جمهرة اشعار العرب . وعدد
 أبياتها في الديوان ثلاثة وأربعون بيتاً وفيها كثير من غريب اللغة . وقد ذكر فيها
 الشاعر النهروان وتذكر أيام الصبا ثم قال انه تاب وأتاب ووصف الفلاة وافتخر .
 القصيدة الثالثة وأولها ساقط من الديوان وما بقي منها اربعة وثلاثون بيتاً
 بتندي بهذا البيت :

يسى بعقوتها الهجّج كأنه حبشي حازقة غدا بتهدّ
 ولكن ناشر الديوان عشر على ملحّقين لهذه القصيدة اثبتها في آخر الديوان . وفي القصيدة
 تلهف على الظاعنين ووصف الفلاة وما فيها من خشاش ونعام مع وصف ثور الوحش
 وصفاً حسناً ومطاردة الكلاب له ويختمها بالفخر وهي أقل غريباً من القصيدة
 الثانية الضاربة .

القصيدة الرابعة ومطلعها :

شت شعب الحى بعد التثام وشجّاك اليوم ربع المقام
 يفتتحها كما ترى بالتلهف على الراحلين وما ثيره منازلهم بعدهم من الحزن وبأقي فيها على
 ذكر الاطلال والدمن ويصف الظبي وامه كما يصف سفر النساء على الابل ويذكر
 محاسنهن ويصف الفلاة وما فيها من وحش وطير ثم يصف الناقة ويشبهها بثور الوحش
 ثم يسترسل بوصف هذا الثور وكيف لحقته الكلاب ثم يشبه ناقته بأتان وحشية ويسترسل
 بوصفها ووصف الصياد وعدد أبيات هذه القصيدة تسعة وسبعون بيتاً .

القصيدة الخامسة ومطلعها :

طال في رمم مهدي أبدهُ وعفا واستوى به بلدهُ
يفتح بالوقوف على الطلل ثم يتخلص الى نظرات في الزمان فيها حكمة وعظة متأثران
بالاسلام ثم يفتخر بالكرم والمقامة ثم يذكر سفر أحبابه على الابل في الفلاة وان
محبوبته من أهل الحضرة لامن البدو (ص: ١١٦) ثم يصف الناقة ويشبهها بالنعام ويسترسل
بوصف النعام ثم يصف ثور الوحش وكيف حاجته الكلاب وفيها كثير من غريب
اللغة وعدد آياتها خمسة وسبعون بيتاً .

القصيدة السادسة ومطلعها :

الامن لعين لا تحفُ سجومها تأويها حاجتها وهمومها
يفتحها بالغزل ويتخلص الى الهجاء ولكن القصيدة غير تامة لم يبق منها الا احد
عشر بيتاً .

القصيدة السابعة ومطلعها :

لمن ديار بهذا الجزع من ربيب بين الأحرزة من هو بان فالكثيب
يفتح بذكر الاطلال ثم يفتخر وعدد آياتها خمسة وعشرون بيتاً
القصيدة الثامنة ومطلعها :

الا ان سلى عن هوانا تسلي وبت قوى ما بيننا وأدلت
يفتح بالغزل ولا يعتم ان يتخلص الى الفخر ويهجو الفرزدق ويبدل بقعطانيته
وشأيته وهي من أحسن الشعر وعدد آياتها ستة وثلاثون بيتاً ويها ينتهي الديوان في
النسخة المخطوطة سنة ٤٣٠

ثم يأتي الذيل الذي جمعه الناشر وفيه طائفة صالحة من شعر الطرماح بعضها
تكملة لما سقط من قصائد الديوان وبعضها قطع مستقلة تدخل في نحو من خمس
وستين صفحة كبيرة ويلفت النظر في الذيل قصيدة يمدح في بعض آياتها يزيد بن
المهلب مطلعها :

تفا نسل الدمن الماصحة . وهل هي ان مُسئلتُ بأئحة .

فيها ذكر الطلل ووصف ثور الوحش وفيها كثير من الغريب ص ١٣٧ .
 وأهم الاغراض التي في التذييل ما يأتي : فخره بتحطان ص ١٤٧ ما يدل على مذهبه
 ص ١٤٩ و ص ١٥٧ وصف النخل ص ١٥٢ شجاعته ص ١٥٥ مدحه ليزيد بن المهلب
 ص ١٥٩ و ص ١٦٢ اتذاعه في الهجاء ص ١٦١ رثاؤد الحسن ص ١٦١ اسفرد الى فارس
 ص ١٧٤ و ص ١٧٥ فخره باليمن ص ١٧٥ اثر الاسلام ص ١٧٦ هجاؤه الموجع
 ص ١٩١ و ص ١٩٤ .

* * *

أمثلة من شعره

قال الطرماح يفتخر
 لقد زادني حبا لنفسي اني
 واني شقي باللثام ولا ترى
 بغيض الى كل امري غير طائل
 اذا ما رأني قطع الطرف دونه
 شقيا بهم الا كريم الشمائل
 ملائت عليه الأرض حتى كأنها
 ودوني فعل العارف اتجاهل
 أكل امري النى اباه مقصرا
 من الضيق في عينه كفة حابل
 اذا ذكرت مسعاة والده اضطني
 معاد لأهل المكرمات الأوائل
 وما منعت دار ولا عزأ أهلها
 ولا يضطني من شتم أهل الفضائل
 وقال يرثي :

ولو ان غير الموت لاقى عدباً
 فتى لو يصاغ الموت صنع كمثل
 وجدك لم يسطع له ابدأ هضما
 ولو ان موتا كان سالم رهبة
 اذا الخيل جالت في تساجلها قدما
 من الناس انانا لكان له سلما

وقال يفتخر :

لولا فوارس مذحج ابنة مذحج والأزد زعزع واستيع العسكر

وتقطعت بهم البلاد ولم يؤب واستضلمت عقد الجماعة وازدري قوم هم قتلوا قنيسة عنوة بالمرج مرج الصين حيث تبينت فخطان تضرب رأس كل مدجج والأزد تعلم ان تحت لوائها فبعزنا نصر النبي محمد وقال يهجو الفرزدق :

بأي بلاد تطلب العز بعدما
اقرت تميم لابن دحمة حكمه
وكانت تميم وسط فحطان اذ سمت
ونجاك من اسد العراق كتائب
بهم ينصر الله الخليفة كلا
بهم نصر الله النبي واثبتت
افخراً تميمياً اذا فتنة خبت
ولو خرج الدجال بنشد دبنه
فراش ضلال بالعراق وحسوة
فأين تميم يوم تخطر بالقنا
فخرت بيوم العقر شرقي بابل
فخرت بيوم لم يكن لك فخره
كفخر الأئمة الرأثحات عشية
فما لقيت قتلى تميم شهادة
تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا
أرى الليل يجلوه النهار ولا أرى
تبولدها هانت تميم وذلت
وكانت اذا سميت هواناً اقرت
كمثذوفة في اليم ليلاً فضلت
لتحطان اهل الشام يوم استهلت
رأوا نعل صنديد عن الحق زلت
عمرى عقد الاسلام حتى استمرت
ولوماً اذا ما المشرفية سلت
لزافت تميم حوله واحزالت
اذا مات ميت من قريش أهلت
كتائب منا أظننت وأحلت
وقد جبت فيه تميم وقلت
وقد نهلت منك الرماح وعلت
برقم حدوج الحي حين اسنقلت
ولا صبرت للحرب حين اشتمعت
ولو سلكت طرق المكارم ضلت
جلال المخازي عن تميم تجلت

وقال أيضاً :

تميم تمنى الحرب ما لم تلاقها وهم قصف الميدان في الحرب خورها
وتلقى تيمماً شينها عند بابها ذليلاً وُيغذى بالهوان صغيرها
ولو كان يبكي القبر من لؤم حشره بكت من تميم كل يوم قبورها

وقال :

وما خلقت تيم وزيد مناتها وضةً الا بعد خلق القبائل
عراقيب ضم الدل واللؤم بينهم كما انضم شخص ٠٠٠ المتضائل
وتوعدي الأقيان من آل دارم بكل لئيم من معد وخامل
ومن يلمس في طيء ترة له تكن كالثريا من يد المتناول

وقال يهجو الفرزدق :

لا عز نصر امري امسى له فرس على تميم يريد النصر من احد
اذا دعا بشعار الازد نفرم كما ينفر صوت الليث بالنقد
لو حان ورد تيم ثم قيل لها حوض الرسول عليه الازد لم ترد
او نزل الله وحياً ان يعذيبها ان لم تعد لقتال الازد لم تعد
وكل لؤم اباد الدهر ائله ولؤم ضبة لم ينقص ولم يبد
لو كان يخفى على الرحمن خافية من خلقه خفيت عنه بنو اسد
قوم اقام بدار الدل اولم كما أقامت عليه جذمة الوند
لا تأمن تميمياً على جد قدمات ما لم تزايل أعظم الجسد

ويعجبي كثيراً قوله معللاً راحة المهموم في الصبح :

الا أيها الليل الذي طال أصبح بيم وما الاصبح فيك بأروح
على ان للعينين في الصبح راحة بطرحها طرفيها كل مطرح

انتهى

فليس مردم بك